ثقافة المتنبي ومصادرها (١)

للأستاذ محمد سليم الجندي

في فاتحة القرن الرابع للهجرة ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي في الكوفة وفيها نشأ وترعرع وشب ، وفيها تعلم وتثقف ، وفيها انبجست قريحته بالشعر ، فجوّده وأحكمه ، وفيها بلغ درجة الشعراء المفلقين .

ثم شاء القدر أن تنبو به وأن يجتويها ، فأجمع أمره على مفارقتها وضمّ جراميزه إليه ، ثم سار منها الى بلاد الشام ، فوضع فيها عِصيّ الحاضر المتخيم ، وفيها غزر أدبه وحصف عقله ، وظهرت مقلدات شعره ، فسطع نجمه ، وذاع صيته ، حتى ملأ الدنيا وشغل الناس .

وقد رزق أبو الطيب السعادة التامة في شعره ، وكتب له من الرواج في أبهاء الملوك والأمراء والوزراء وأعيان الأمة ورجالات العلم والأدب ما لم يكتب لغيره ، ونال شعره من سرعة الشيوع والانتشار في القاصية والدانية ما لم ينلهُ شعر آخر ، حتى سارت به الركبان ، وأنست به الشمار ، وعمرت مجالس العلم والأدب .

وطمع كثير من الطامعين في الشهرة الطامحين الى الخلود أن يخلد ذكرهم في شعره الخالد ، واستدعوه الى قصورهم ومقارّ عظمتهم وسلطانهم ، وبذلوا له في سبيل ذلك أموالاً عظيمة ، ومنهم من وعده أن يشاطره ماله ويغمره بالهبات والأعطيات ، فلبّى فريقاً وترفع عن إجابة آخرين .

وحسده الناس على فضله وأدبه ونفسوا على ممدوحيه مدحه وكثر

(١) ألقيت في مهرجان المتنبي الذي اقامه المجمع العلمي العربي في تموز سنة ١٩٣٦ .

منتقدوه وعائبوه من حساده وممن ترفع عن مدحهم ومن أشياعهم ، وفي مقدمة هؤلاء الصاحب بن عباد في فارس والوزير المهلبي في بغداد وأبو الفضل بن خنزابة في مصر ، فان هؤلاء لم يدخروا وسعاً في الكيد له ، وإثارة الشعراء والعلماء والملوك عليه ، والبحث والتنقيب عن مساوئه وأشياعهم .

وتوفر العلماء والأدباء على دراسة شعره ، ورأى فريق منهم الحق في جانبه فتولى الانتصار له والردّ على خصومه الذين أرادوا أن يطمسوا نجوم السماء بأكفهم ويطفئوا نور الله بأفواههم ، فظهر من هذا وذاك ما كان في كلامه من الآيات المعجزة والروائع الباهرة ، واطلع عليها من قصر فهمه عن إدراكها ، فازدادوا إعجاباً بأدبه وحسداً لفضله وتنقيباً عن مساوئه ومثالبه ، وازداد الآخرون إظهاراً لمحاسنه ومناقبه .

وقلما وجد الباحث ناحيةً من نواحي هذا الشاعر الفذّ ، إلا وقد قتلها العلماء بحثاً وأشبعوها تمحيصاً وتحقيقاً ، ما خلا ثقافته ومصادرها فان حظها من ذلك قليل عند المتقدمين وأقل من القليل عند المتأخرين ، لا ينقع غلة ولا يشفي علة ، وهو على قلته محفوف من الغموض والشكوك بحجب مُصمتة لا تنفذ منها أشعة البحث ، محاط بحواجز من التناقض في الأقوال والتضارب في الآراء التي نقلها المتأخر عن المتقدم وطبع فيها الآخر على غرار الأول من غير تمحيص ولا تدبر ، فكانت الحقيقة فيها أخفى من السهي وأغمض من السر في الضمير .

ثقافة المتنبي

مبدؤها ، منتهاها ، مكان كل منها

لقد تصدى كثير من العلماء والأدباء لذكر المتنبي وأطالوا القول في تنبئه ومدحه بجودة شعره ، وانتشاره واطلاعه على غير العربية وما شاكل ذلك

ولكن منهم من أعرض عن التصدي لثقافته ، ومنهم من أوجز فيها إيجازاً مخلاً .

وممن ذكره من هؤلاء ابن الأنباري في نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، والبديعي في الصبح المنبي ، والأصفهاني في إيضاح المشكل ، والثعالبي في يتيمة الدهر في نحو تسعين صفحة ، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، وابن العماد في شذرات الذهب ، وابن خلكان في وفيات الأعيان ، والعثماني في معاهد التنصيص ، وابن نباتة في سرح العيون ، والبغدادي في خزانة الادب ، وأبو الفداء وابن الوردي في تاريخيها ، وابن حجر في لسان الميزان ، والخطيب في تاريخ بغداد ، والعكبري في شرح ديوانه ، والواحدي كذلك .

وليس في كلام هؤلاء الاعلام ما ينير السبيل للباحث عن ثقافة المتنبي إلا وميض يسير نسير على ضوئه الضئيل في هذا المجهل القاتم ، وإن كان الجمع بين ما فيه من التناقض أشق من عقد شعيرة على الاجذم ، وأصعب من الجمع بين الماء والنار .

ويمكن أن يلخص كلام هؤلاء القوم ومن احتذى على مثالهم من بعدهم ، بأن فريقاً منهم زعم أن أبا الطيب وُلد في الكوفة وفيها ترعرع ، واختلف الى كتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فتعلم دروس العربية لغةً وشعراً وإعراباً ، وخرج الى البادية ، فصحب الاعراب ، وعاد بعد سنين بدوياً فحاً ، ونظر في أيام الناس ، وأكثر ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم ، وقال الشعر صبياً ، ووقع في صغره الى رجل بالكوفة من المتفلسفة يكنى أبا الفضل فهوّسه وأضله كما ضلّ .

وزعم فريق آخر أنه ، وإن كان كوفيّ المولد ، شاميّ المنشأ سافر به أبوه الى بلاد الشام وهو صبيّ ، فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها ، ويسلمه الى المكاتب ، ويردّده في القبائل ،

ويشتغل فيها في فنون الادب حتى مهر فيها وتضلع من علم اللغة ؛ وأنه تخرّج بها ومنها خرج نادرة الفلك .

ومنهم من جمع بين الامرين : تعلمه بالكوفة وتعلمه بالشام .

وفي هذه الاقوال على تباينها شيء من الحقيقة ، ولكنه منتشر في تضاعيف الكلمات انتشار ذرات الذهب في معدنه بين التراب والصخر ، لا يتسنى أن يصاغ منها شيء من الحلي ، حتى ينخلها المعدّن ، ثم يحصلها وينقيها ، ثم يؤلف بينها ، ثم يصهرها ، ثم يفرغها بعد ذلك في القالب الذي يريده .

وهذا ما نريد معالجته في هذه الكلمة الموجزة في الوقت الموجز .

قد رأينا هؤلاء العلماء اتفقت كلمتهم على أنه ولد في الكوفة واختلفت في المكان الذي تثقف فيه ، وليس في أقوالهم ما يكشف القناع عن وجه الحقيقة الناصعة ، إذ لم يبين فيها ما درسه في الكتّاب من اللغة والشعر وغيرهما ، ولا ما هوّسه به أبو الفضل الضال المضل ، كما لم يبين من هم الاعراب الذين صحبهم ، والوراقون الذين لازمهم ، والعلماء الذين لزمهم في الكوفة أو في الشام ، ولا ما هو الذي أخذه عن كل منهم ، ولا ما تعلمه في مكاتب الشام ، ولا ، ولا .

وكل ما ذكروه مما أسلفنا ذكره وأمثاله مما ضربنا عنه الذكر صفحاً كلمات مجملة يقول مثلها المادح أو القادح ليقضي منها حاجة في نفسه ، ولكن الباحث الذي يتوخى البسط والابانة والتفصيل لا يستطيع أن يتخذها أساساً يقيم عليها صروح بحثه .

وقد يخيل إليّ أن أقرب شيء لسكن اليه النفس في هذا أن يقال : إن المتنبي درس في الكوفة اللغة ، وفيها تثقف وقال الشعر الجيد ، ولكن لم يشتهر كثيراً ، ثم خرج الى الشام سنة ٣٢١ ، وكان عمره إذ ذاك ثماني عشرة سنة ، فاطلع على ثقافة أهلها ، واجتمع بطائفة من علمائها

وأدبائها ، وتابع الدراسة ، فازدادت ثقافته وغزرت مادته واستحصد شعره وحصف عقله وشاع ذكره ونضج أدبه..

والدليل على هذا أمران ، الاول : أن المؤرخين رووا له أبياتاً قالها في صباه في المكتب وهي :

أبى الهوى أسفاً يومَ النوى بدني ... وفرّق الهجر بين الجفن والوَسَنِ
روحٌ تردّد في مثل الخلال إذا ... أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمي نحولاً انني رجلٌ ... لولا مخاطبتي إياك لم ترني

ورووا له قصيدةً مدح بها رجلاً يقال له أبو الفضل ، وقد أراد أن يستكشفه عن مذهبه ، ولا أعلم إن كان أبو الفضل هذا هو الذي هوّسه وأضله أم غيره ، يقول فيها متغزلاً :

غصن على نقوَى فلاة نابتٌ ... شمس النهار تقل ليلاً مظلما
لم تجمع الاضداد في متشابهٍ ... إلا لتجعلني لغرمي مغنما

ويقول مادحاً :

يا أيها الملك المصفى جوهراً ... من ذات ذي الملكوتِ أسمى من سما
نورٌ تظاهر فيك لاهوتيه ... فتكاد تعلم علمَ ما لن يعلما
كبر العيان علي حتى إنه ... صار اليقينُ من العيان توهما
يا من لجود يديه في أمواله ... نقم تعود على اليتامى أنعما

وذكروا له قصيدة قالها في صباه حين اجتاز برأس عين سنة ٣٢١ ، وذلك أن سيف الدولة أوقع بعمرو بن حابس من بني أسد وبني ضبة ورياح من تميم ، فمدحه بها ولم ينشده إياها ، فلما لقيه دخلت في جملة المديح ، مطلعها :

ذكرُ الصبا ومراتع الآرامِ ... جلبت حمامي قبل يوم حمامي
دمنٌ تكاثرت الهموم عليَّ في ... عرصاتها كتكاثر اللوّام

وفيها يقول متغزلاً :

فكأن كلَّ سحابة وكفت بها ... تبكي لعبني عروةَ بن حزام
ليس القبابُ على الركاب وإنما ... هنَّ الحياة ترحلت بسلام
ليت الذي خلق النوى جعل الحصى ... لخفافهن مفاصلي وعظامي

ويتخلص الى المدح فيقول :

لم يتركوا لي صاحباً إلا الأسى ... وذميل ذعلبة كفحل نعامِ
وتعذر الاحرار صير ظهرها ... إلا اليك عليَّ فرج حرام
أنت الغريبة في زمان أهله ... ولدت مكارمهم لغير تمام
ملكٌ زَهت بمكانه أيامه ... حتى افتخرن به على الايام
وتخاله سلب الورى أحلامهم ... من حلمه فهم بلا أحلام

ويقول فيمن عصوا الامير :

فتركتهم خلل البيوت كأنما ... غضبت رؤوسُهم على الاجسام
أحجارُ ناسٍ فوق أرض من دمٍ ... ونجومُ بيضٍ في سماء قتام

ورووا له شعراً كثيراً قاله في صباه فيه من عيون الكلام وروائع الشعر ما يندر مثله في غير كلام الفحول .

وهذا الشعر المذكور وأمثاله شعر محكم التأليف مصقول الديباجة صحيح المعنى مشتمل على شيء من مصطلحات العلوم كجمع الأضداد في متشابه والغرم والمغنم والجوهر واللاّهوتية والعيان واليقين والتوهم ونحوها ، وعلى الاشارة إلى رجل اشتهر في التاريخ بحبه وهو عروة بن حزام ، وعلى كثير من الطباق والجناس وغيره من صناعة البديع كالهوى والنوى والغرم والمغنم والنقم والأنعم ونحوها ، وعلى ضروب من المجاز اللطيف والتشبيه الرائع والكنايات الجميلة وما شاكل ذلك مما لا يتسنى لشاعر أن يأتي بمثله إلا بعد أن يمهر في الشعر ويحتنك .

ولئن كان فيما قاله المتنبي من الشعر بعد هذا ما هو أجود منه وأعلى فان كل شاعر لا يكون شعره في أول عهده بالشعر أعلى من شعره بعد أن يتمرس به عهداً طويلاً ولا تبلغ باكورة شعره في قريحة شبابه

ما يبلغه شعره بعد أن يزاول الشعر ويعالجه بعد أن ينضج أدبه ويستحصف عقله وتكمل ثقافته .

وبهذا يتضح لنا أن قول الثعالبي وابن خلكان ومن تتبع خطاهما أنه قدم الشام صبياً وجال في أقطارها ودخل المكاتب وتخرج بها الخ .. قول لا يؤيده الواقع ولا تقره الحقيقة .

الامر الثاني : ما رواه المؤرخون من أنه كان يصحب ديواني أبي تمام والبحتري حتى إنه لما قتل وجدا معه بخطه وعلى الحواشي علامة كل بيت أخذ معناه وسلخه ، وأنه كان له دفاتر كان يصحبها حيثما رحل وكان كثير الإشفاق عليها لأنه انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً ، وأنها وجدت معه حين قتل .

وهذا دليل صريح على أنه ما فارق الدراسة والمطالعة حتى فارق الحياة وكان فوق هـــذا يخالط جماعةً من الشعراء والأدباء والعلماء في بلاط سيف الدولة وغيره .

وهذا القدر كاف في الدلالة على أن المتنبي ابتدأ تثقفه وقوله الشعر الجيد في الكوفة وأتم الأمرين معاً في بلاد الشام ، ومنه يتبين لنا المكان الذي ابتدأت فيه ثقافته والمكان الذي تمت فيه .

تقسيم ثقافته ومصادرها

ومن المفيد أن نقسم ثقافة المتنبي إلى أقسام يتميز كل واحد منها من الآخر ليسهل ضبطه وتفرقته من غيره وإن كان بعضها مشتركاً مع غيره في بعض الوجوه ، ثم نبين مصدر كل منها بقدر ما سمحت لنا النصوص فهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام لغوية وأدبية وعلمية ولكل واحد من هـذه الأقسام الثلاثة مصدر مجهول ومصدر معلوم ؛ أما المصدر المجهول فتشترك فيه الأقسام الثلاثة على السواء ، وهذا المصدر لم يسعف البحث بمعرفته معرفة تكشف النقاب عن حقيقته ، وذلك ما تقدم ذكره من مثل دخوله الكتاب في الكوفة والمكاتب في الشام « إذا صح ذلك » . وخروجه إلى

البادية وصحبته الأعراب وملازمته الوراقين ودفاتره ولزومه العلماء وبما شاكل هذا من المصادر المبهمة المجهولة التي لم يبين ما تعلمه وما أخذه من كل منها .

ولكل قسم مصدر آخر معلوم تحته أنواع متعددة أو مصادر أخرى معلومة يتميز بها من الاقسام الاخرى وقد يشارك غيره في بعضها .

ثقافته اللغوية :

من مصادرها كلام الشعراء الذين زعموا أنه أخذ معانيه منهم كامرئ القيس والنابغة وزهير وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في ثقافته الأدبية .

ومنها أنه وجد في أشعاره وأخباره ما يدل على تضلعه باللغة واطلاعه على أسرارها ودقائقها وغريبها اطلاعاً حمله على الإعجاب بنفسه والتمرد على بعض مذاهب النحاة ، واحتقاره مثل ابن خالويه في مجلس سيف الدولة ، وأبي الفرج الأصفهاني وغيره من الأدباء والعلماء في مجلس الوزير المهلبي ، وأبي علي الآمدي شيخ الجماعة في حضرة الوزير أبي الفضل بن خنزابة في مصر .

فمما ورد في شعره قوله :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً ... مضى قبل أن تلقى عليه الجوازمُ

وقوله :

أمضى إرادته فسوف له قدٌ ... واستقرب الأقصى فثمّ له هُنا

وقوله :

وكان ابنا عدوٍ كاثراه ... له ياءي حروف أنيسان

وقوله :

حولي بكل مكان منهم خلقٌ ... تخطي إذا جئت باستفهامها بمن

ومما روي في أخباره : أن أبا علي الفارسي قال له يوماً : كم من الجموع على فِعلى ، فقال في الحال : حِجلى وظِربى . « حجلى جمع حجلة

أو اسم جمع لها لنوع من الطير وظربى جمع ظربان ، وهو دويبة شبيه الكلب أصم الأذنين طويل الخرطوم أسود السراة أبيض الظهر كثير النسو منتن الرائحة » . قال أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد . وقال في المتنبي : ما رأيت رجلاً مثله في معناه .

وأن الحاتمي لما ناظر المتنبي في بغداد ، سأله : ما الفرق بين التقديس والقدّاس والقادس ، فقال له المتنبي : أي شيء غرضك في هذه المذاكرة بل المهاترة ، ثم قال له : التقديس التطهير ولذلك سمي القدس قدساً لاشتماله على الذي يكون فيه الطهور وكل هذه الأحرف تؤول إليه ، فقال الحاتمي : ما أحسبك أمعنت النظر في كتب اللغة وعلوم العرب ولو تقدم منك مطالعة لها ما جمعت بين معاني هذه الكلمات مع تباينها لأن القدّاس حجر يلقى في البئر ليعلم غزارة ما فيه من قلته ، والقُدّاس يشبه الجمان يعمل من الفضة ، والقادس السفينة .

وإذا تأملنا جواب المتنبي على إيجازه وعلى أنه جواب على سؤال متعنت فوجيء به . تبين لنا أنه جواب عالم باللغة مطلع على أسرار وضعها واشتقاقها ، فإن علماء اللغة قالوا : القُدُس الطهر والبيت المقدّس لأنه يتطهر فيه من الذنوب ، والتقديس التطهير ، والقدوس الطاهر ، ونقدّس لك نطهر أنفسنا لك ، والأرض المقدّسة المطهرة ، وروح القدُس روح الطهارة أي خلق من طهارة ، ولا قدّست أمة لا طهرت ، والقدّس والقدُس قدح يتطهر به ، والقدس السطل لأنه يتطهر به ، ومن أسماء مكة قادس والمقدسة لأنها تقدس من الذنوب أي تطهر ونحو ذلك ، ولا يضير المتنبي أن لا يعرف معنى القادس والقُدّاس والقدّاس ، فإن كثيراً من أئمة اللغة توقفوا على معان لا يعرفونها وما عرف التاريخ رجلاً وعى صدره معاني اللغة كلها حتى العرب أنفسهم ، فإن قرشياً قال له ملك حمير « ثبْ » فلم يفهم معناه بلغة حمير فوثب فمات ، وإن عمر بن الخطاب توقف في معنى الأب ؛ وان كثيراً من

أئمة اللغة جهلوا معاني بعض الكلمات وأخطأوا في تفسير بعض آخر . فالكسائي لم يفرق بين معنى عبيت وأعبيت حتى نبّه الى ذلك ، عبيدة سئل عن أسماء أعضاء الفرس فتوقف وقال لست بيطار . وكفى المتنبي فضيلة أنه لم يهرف بما لم يعرف ولم يجب بغير ما يثق بعلمه ، على أن ما ذكره الحاتمي في تفسير القدّاس لم أرَ من ذكره من أئمة اللغة ، وإنما قالوا : هو حجر يوضع في حوض الابل أو وسطه اذا غمره الماء رويت الابل ، أو يطرح فيه يقدّر عليه الماء يقتسمونه بينهم ، أو حصاة يقسم بها الماء في المفاوز .

والحاتمي إنما تطوع بمناظرة المتنبي ليظهر على أكتافه ، ويتحدث الناس أنه ظهر عليه وألجمه ، وليتقع من ذلك غلة معز الدولة ووزيره المهلبي اللذين توقعا من المتنبي أن يمدحها فترفع عن ذلك ، والحاتمي على سلفه وتعنته لم يستطع أن يجحد فضل أبي الطيب وتفوقه وتفرده ، فقد قال في رسالته التي ضمنها مناظرة المتنبي : فلما علوته بالكلام قال : يا هذا اللغة مسلمة لك ، فقلت : كيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها وأعرفهم باشتقاقها والكلام على أفانينها ، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك ؛ ثم قال في موضع آخر منها : ورأيت له حق التقدم في صنعته فطأطأت له كتفي .

هذه شهادة خصم لدود وعدو شديد للمتنبي « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

وقال ابن خلكان فيه : إنه كان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها ، وإنه لا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب . وقال الاصبهاني في إيضاح المشكل : وجملة القول فيه أنه كان من حفاظ اللغة ورواة الشعر ، وكل ما في كلامه من الغريب المصنف سوى حرف واحد هو في كتاب الجمهرة وهو قوله : « ... تطوى المجلحة العقد » ، وهذا من بيت وهو :

وأمضي كما يمضي السنان لطيتي وأطوي كما تطوي المجلحة المقدّ

يريد بالمجلحة الذئاب الجريئة الشديدة الماضية ، وأطوي من الطوى وهو الجوع ، والعقد جمع أعقد وهو الذي في ذنبه عقد أي التواء ، وذئب أعقد معوجّ .

وقال أيضاً : كان المتنبي يغشى أبا الفضل بن العميد كل يوم ، وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه .

وديوانه طافح بالأبيات والكلمات الدالة على غزارة مادته وسعة اطلاعه وأخباره مكتظة بالادلة على هذا .

وكان أبو الطيب فوق هذا صنعاً ماهراً في صوغ الكلمات وتأليفها ، لبقاً بارعاً في تخير ما يلائم منها كل غرض ، حاذقاً في وضع كل كلمة في موضعها .

قال ابن فورّجة أو فوزّجة : قرأت على أبي العلاء المعري ، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب ، فقلت له : ما ضرّ أبا الطيب لو كان قال مكان هذه الكلمة كلة أخرى أوردتها ، فأبان لي عوار (١) الكلمة التي ظننتها ، ثم قال : لا تظنن انك تقدر على إبدال كلة واحدة من شعره بما هو خير منها فجرب إن كنت مرتاباً ، وها انا ذا أجرب هذا المهد فلم اقدر ، وليجرب من لم يصدق يجد الامر كما قلت . وشهادة ابي العلاء هذه تعدل شهادة أمة بأسرها او تزيد ، وإنما يقدرها حق قدرها من عرف من هو ابو العلاء ، وما هو في اللغة والادب والشعر ، وإن كانت لا تخلو من شيء من المبالغة التي سببها حب ابي العلاء المتنبي وتواضعه .

(١) العوار بالفتح العيب وقد يضم .

ثقافته الأدبية :

ولثقافته الادبية غير ما سبق ذكره من المصادر مصادر أخرى منها اقوال الشعراء الذين زعم حساده انه اغار على معانيهم وسلخها ، ثم تصرف فيها بما شاء من زيادة ونقص وتوليد ونقض وقلب ، وهؤلاء الشعراء كثيرون منهم : امرؤ القيس ، والافوّه الاودي ، والنابغة الذبياني ، وزهير ، والحصين بن الحُمام المري ، وعنترة ، وذو الاصبع العدواني ، والاعشى الاكبر ، وعروة بن الورد ، وحاتم الطائي ، وربيعة بن مرداس ، وابو صخر الهذلي ، والمثقب ، وعروة بن عشبة ، والعوام بن عمرو ، واوس بن حجر ، وابو جويرية العبدي ، وخفاف بن غصن البرجمي ، وحطائط بن يعفر ، والحزين الدؤلي ، وقيس بن الخطيم ، وقيصر الاسد ، وعين بن مالك ، وعلاقة بن عربي ، ولبيد ، وإياس الكلابي ، ومعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وذؤيب بن كعب التميمي ، وعبد يغوث ، ومضرس بن ربعي ، والحادرة ، وجابر بن حباب ، وتأبط شراً ، وسويد ابن ابي كاهل ، وأمية بن ابي الصلت ، وخداش بن زهير ، وعنترة بن الاخرس ، وزياد العبدي ، وطرفة ، والنابغة الجعدي ، وحسان بن ثابت ، وعمرو بن معد يكرب ، والعباس بن مرداس ، والاهتم بن سنان ، وعلقمة بن اسوى ، وأحيحة بن الجُلاح ، والفرزدق ، وجرير ، والاخطل ، وكثيّر ، والطرماح ، وعمر بن ابي ربيعة ، والراعي ، وذو الرمة ، وقيس ابن ذريح ، ويزيد بن الطثرية ، وعقيل بن غفلة ، والكميت ، والجلاح ، واعشى باهلة ، ونصر بن سيار ، وسالم بن وابصة ، ومتمم بن نويرة ، والبعيث ، والاعور الشني ، وعدي بن الرقاع ، والمؤرج بن عمر ، وابو العميثل ، والحطيئة ، وزياد الاعجم ، وعمران بن حطان ، وعبد الرحمن ابن دارة ، وعميرة بن جعيل ، وعمر بن الاهتم ، ورؤبة ، وعبد الله ابن الزبير الاسدي ، وثابت بن قطنة العتكي ، وعبد الله بن معاوية ، وابن الرقيات ، وهدبة بن الخشرم ، وزفر بن الحارث ، وابن هرمة ،

من قول الحكيم : من كانت همته الأكل والشرب والنكاح فهو بطبع البهائم ، لأنا نعلم أنها متى خلي بينها وبين ما تريده لم تفعل شيئاً غير ذلك . وقوله :

ورُبَّ مالٍ فقيراً من مروته لم يثر منها كما أثرى من العدمِ

من قول الحكيم : من أثرى من العدم افتقر من الكرم ، وقوله :

وشبه الشيء منجذبٌ إليه وأشبهنا بدنيانا الطغامُ

من كلام الحكيم : الأشكال لاحقة بأشكالها ، كما أن الأضداد مباينة لأضدادها . وقوله :

ذلَّ من يغبط الذليل بعيشٍ رُبَّ عيش أخف منه الحمامُ

من كلام الحكيم : إذا لم تنصرف النفوس في شهواتها : فحياتها موت ووجودها عدم . وقوله :

كل حلمٍ أتى بغير اقتدارٍ حجةٌ لاجئٌ إليها اللئامُ

من كلام الحكيم : الفرق بين الحلم والعجز أن الحلم لا يكون إلا عن قدرة ، والعجز لا يكون إلا عن ضعف . وقوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

من كلام الحكيم : العاقل لا يساكن شهوة الطبع لعلمه بزوالها ، والجاهل يظن أنها خالدة وهو باقٍ عليها ، فهذا يشقى بعلمه وهذا ينعم بجهله . وقوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراقَ على جوانبه الدمُ

من كلام الحكيم : الصبر على مضض الرياسة ينال به شرف النفاسة . وقوله

الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلمُ

من كلام الحكيم : الظلم من طبع النفس ، وإنما يصدها عن ذلك إحدى علتين : إما علة دينية أو علة سياسية كخوف الانتقام . وقوله :

هوِّن على بصرٍ ما شق منظره فانما يقظات العين كالحلمِ

من كلام الحكيم : كرور الأيام أحلام ، وغذاؤها أسقام وآلام وقوله :

وبشار ، وحماد ، والعتابي ، وأبو العتاهية ، ومروان بن ابي حفصة ، وابو الشيص ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، والبحتري ، وابن الرومي ، والعباس بن الأحنف وابن المعتز ، وأبو هفان ، وابن الخياط ، وعبد الله بن طاهر ، وأشجع السلمي ، وعلي بن جبلة ، وبكر بن النطاح ، والناشيء الأكبر ، وعبد الله بن محمد المهلبي ، وموسى بن جابر الحنفي ، وأبو دلف ، ومسلم بن الوليد ، وديك الجن ، ودعبل ، ومحمود الوراق ، وعلي بن الجهم ، ويعقوب بن الربيع ، ومحمد بن وهيب ، ومنصور النمري ، وأبو سعيد المخزومي ، وأبو عطاء السندي ، وأحمد بن أبي فنن ، والعتبي ، ومنصور الفقيه ، وابن المعذل ، والخليع ، وعلي بن الخليل ، والخبز أرزي ، والحدوني ، وابن الناصر ، وخالد الكاتب ، والخزيمي ، وأحمد بن طاهر ، وسعيد بن حميد ، وأبو طاهر ، وابراهيم بن المهدي ، ويزيد المهلبي ، ويحيى بن زياد ، والسيد ، والخيم الراسبي ، وصالح بن عبد القدوس ، وسلم الخاسر ، وحمزة بن بيض ، والطرمي ، وأبو حفص الشطرنجي ، وإسحاق بن خلف ، والناجم ، ومنصور بن بسام .

وكثير من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمولدين ممن سموا وممن لم يسموا .

زعموا أن أبا الطيب أغار على معانيهم فانتزعها ، أو أغار على من أغار عليها فانتزعها منه .

ومن مصادر ثقافته الأدبية أقوال الحكماء ، فقد زعم فريق من المولعين بالاغراب من شراح ديوانه وغيرهم ، أنه أخذ كثيراً من معاني الحكماء وجعلها في شعره ، وذلك مثل قوله :

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبتْ في مرادها الأجسامُ

قالوا : إنه أخذه من كلام أرسطاطاليس : إذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة . وقوله :

أرى أناساً ومحصولي على غنمٍ وذكر جودٍ ومحصولي على الكلمِ

سبحان خالق نفسي كيف لذّتها ... فيها النفوس تراه غاية الألمِ

من قول الحكيم : النفس الشريفة ترى الموت بقاء لدركها أماكن البقاء ، وهذه حاله تعجز الخلق عن ركوبها . وقوله :

كثير حياة المرء مثل قليلها ... يزول وباقي عمره مثل ذاهبِ

من قول الحكيم : آخر حركات الفلك كأوائلها ، وناشىء العالم كلاشيه في الحقيقة لا في الحس . وقوله :

فهذه الأرواح من جوّه ... وهذه الأجسادمن تربهِ

من قول الحكيم : اللطائف سماوية والكثائف أرضية ، وكل عنصر عائد الى عنصره . وقوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمانٍ هنّ من كسبهِ

من قول الحكيم : إذا كان تناشؤ الأرواح من كرور الأيام فمالنا نعاف رجوعها الى أماكنها . وقوله :

وغاية المفرط في سلمه ... كغاية المفرط في حربه

من قول الحكيم : آخر إفراط التوقي أول موارد الخوف . وقوله :

أرى كلنا يبغي الحياة بسعيه ... حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا

فحب الجبان النفس أورده البقا ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

من قول الحكيم : النفس المتجوهرة تأبى مقارنة الذل جداً وترى فناءها في طلب العز حياتها ، والنفس الدنية بضدّ ذلك . وقوله :

إلف هذا الهواء أوقع في الأ ... نفس أن الحمام مرّ المذاقِ

من قول الحكيم : النفوس البهيمية تألف مساكنة الأجساد الترابية ، فلذلك تصعب عليها مفارقة أجسامها ، والنفوس الصافية بضد ذلك .

وأمثال هذا كثير في شعره ، مما زعموا أنه اقتبسه من كلام الحكماء بين حكيم معلوم سمي وبين حكيم مجهول لم يسمّ .

ولو استطاع خصومه لنسبوا كل جيد من معانيه الى غيره من الشعراء والحكماء ، وإذا صحّ كل ما قيل فأبو الطيب أوسع الشعراء اطلاعاً على

كلام الفحول من حكماء وشعراء ، وأبصرهم بالمعاني الجيدة ، وأبرعهم في انتقائها ، وأقدرهم على التصرف بها زيادة ونقصاً وتوليداً وقلباً ، وأحذقهم صوغاً وتأليفاً .

وقد شهد له فريق كبير من خصومه بتفوقه في مواطن كثيرة على من زعموا أنه أخذ منه في قوة السبك ، وروعة الألفاظ ، وجمال المعاني .

ولو ادعى مدعٍ أن هذا الحكيم المعلوم أو المجهول خلقه حساد المتنبي ونسبوا إليه تلك الأقوال ليسلبوه محاسنه ، لكان ذلك غير بعيد ، ولشهد له ما في أقوال أولئك الحكماء من الركاكة في التأليف ، والتقصير عن الإحاطة بالمعنى ، وإن جاء بعضها مسجعاً .

ومن أمعن النظر في كلام أبي الطيب ، وكلام ذلك الحكيم يتضح له في مواضع متعدّدة أن لا علاقة بين الكلامين إلا من حيث اشتراكها ببعض الألفاظ أو بطرف من المعنى ، وأن المعنى في شعر أبي الطيب أجل وأتمّ منه في كلام الحكيم ، والشواهد على هذا كثيرة ، منها قوله :

كلما أنبت الزمان قناةً ... ركب المرء في القناة سنانا

قالوا : إنه من قول الحكيم : من صحة السياسة أن يكون الانسان كلما ظهرت سنة عمل بها بحسب السياسة .

وعند التأمل لا يجد الباحث بين الكلامين رحماً واشجةً ، ولا نسباً جامعاً ، ولا رابطةً بينهما إلا تعلق كل منها بعمل الانسان ، ولكن هذا العمل مختلف في كليهما جدّ الاختلاف من حيث الغاية والقصد والسبب والعلة . وكذلك قوله :

دع النفس تأخذ وُسعها قبل بينها ... فمفترقُ جاران دارها العمرُ

قالوا : إنه منقول من قول الحكيم : مَن قصر عن أخذ لذاته عدمها وعدم صحة جسمه .

والفرق بين المعنيين من حيث الصحة والجمال كالفرق بين اللفظين من حيث البلاغة وقوة الأسر ، وصفاء الديباجة ؛ فان المتنبي يقول : أعط

نفسك حظها قبل أن تموت ، فان الحياة لا تدوم . والحكيم يقول : لا تقصر عن أخذ لذتك فانك تعدم تلك اللذة وتعدم صحة جسمك . ولا علاقة لأحد هذين المعنيين بالآخر إلا من جهة الحض على التمتع باللذة ، ولكن علة ذلك مختلفة في كليهما ، والأمر المترتب على المخالفة مختلف فيها أيضاً .

وهذا شأن أكثر الأبيات التي زعموا أنه أخذها من قول الحكماء ، وكثير من الأبيات التي ادعوا أنه سلخها من معاني الشعراء ، كقوله :

حسان الثني ينقش الوشي مثله إذا مسن في أجسامهن النواعم

قالوا إنه من كلام امرىء القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محولٌ من الذر فوق الاتب منها لأثرا

وقد رأيت نحواً من ثلاثين شاعراً بين امرىء القيس والمتنبي أخذوا هذا المعنى ولم يستطع أحد أن يجود فيه بعد صاحبه مثل المتنبي ، وكذلك قوله :

له عسكرا خيلٍ وطيرٍ إذا رمى بها عسكراً لم يبق إلا جماجمه
سحابٌ من العقبان يزحف تحتها سحابٌ اذا استسقت سقتها صوارمه

وقوله في وصف جيش :

تمرّ عليه الشمس وهي ضعيفةٌ فتطالعه من بين ريش القشاعم
اذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة تدوّر فوق البَيض مثل الدراهم

قالوا إنه من قول أبي تمام :

وقد ظللت عقبان راياته ضحى بعقبان طير في الدماء نواهلِ
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

وأصل هذا المعنى للأفوه الأودي أخذه منه النابغة الذبياني فزاد فيه زيادة حسنة ثم تتابع عليه شعراء كثيرون مثل أبي نواس ومسلم بن الوليد وغيرهما ثم جاء أبو تمام فزاد فيه ما زاده حسناً وجاء المتنبي فزاد فيه زيادة حسنة ولم يأخذ معنى أبي تمام كله بل وافقه في أصل المعنى المأخوذ

عن النابغة والأفوه ثم فارقه في بقية المعنى وهو على غاية من الجودة ، ورحمة الله التي وسعت طائفة كبيرة من الشعراء الذين ألموا بهذا المعنى ولم يؤاخذوا به لا تضيق عن أبي الطيب .

وكان ابو الطيب سئل مرة عن اتفاق الخواطر فقال : الشعر ميدان والشعراء فرسان فربما اتفق توارد الخاطر كما يقع الحافر على الحافر . وهذا مما لا ريب فيه فانا قد نرى شاعراً وافق غيره في معنى من غير أن يطلع على شعره ، ونرى أيضاً شاعراً أعجمياً قد يوافق شاعراً عربياً وبالعكس من غير أن يعلم أحدهما لغة الآخر فضلاً عن أن يطلع على شعره ويقتبس من معناه .

وليس القصد من كلامنا هذا أن نبرىء المتنبي من السرقة المعاني ، وانما نريد أن نبين أن كل ما نسب اليه من ذلك غير صحيح ، وأن دعوى خصومه مبالغ فيها ، وأن غيره شاركه في مثل هذا ولكن لم يكن له من الخصوم والمنتقدين ما كان للمتنبي .

وبعد كل ما تقدم فاننا لا ننكر أن المتنبي كان كما قال الخالديان كثير الرواية جيد النقد ، وقد أسلفنا قول ابن خلكان : إنه كان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وأنه لا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب ؛ ولكننا ننكر أن يكون كل معانيه أو جلها مأخوذاً من غيره .

وأغرب من كل ما سبق ذكره ما ذكره بعض خصومه المتمتين المنقبين عن سرقاته : وهو أن قصاراً كان يعمل على شاطىء النهر وكان يرى كل يوم كركياً يجيء فيلتقط من الحمأة دوداً ويقتصر في القوت عليه ، ثم رأى الكركي يوماً صقراً ارتفع في الجو وانقض على حمامة فاصطادها وأكلها ، فقال الكركي : مالي لا أصطاد الطيور كما يصطاد هذا الصقر وأنا أكبر منه جسماً ثم ارتفع في الجو وانقض على حمامة فأخطأها وسقط في الحمأة فتلطخ رأسه وتلطخ ريشه ، ولم يمكنه أن يطير

فأخذه الصياد ورجع إلى منزله فاستقبله رجل فقال ما هذا فقال : كركي يتصقر ، فسمع المتنبي هذه الحكاية فأخذ منها معنى قوله :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

وهذا البيت من قصيدة قالهـــا حين هرب من مصر ووصل إلى الكوفة مطلعها :

الا كل ماشية الخيزلى فدا كل ماشية الهيدبى

يصف فيها رحلته ما بينها ولا نعلم في أي موضع سمع هذه الحكاية ، وقد كان فاراً من كافور يختبىء في مكان بعد آخر وليس يصحبه غير غلمانه ، فمن قص عليه ذلك ومن رواه عنه ؟ .

وهذا يؤيد ما قلناه أن خصومه لو استطاعوا لنسبوا كل معنى جيد في شعره إلى غيره ، ولذلك قال ابن نباتة في سرح العيون : وهـذا من نوادر المنقين على سرقات المتنبي ، ومن نادر التعصب على هـذا الرجل الفاضل المحسود .

ثقافته العلمية ومصادرها :

وأما ثقافته العلمية فهي أشد غموضاً من سابقتيها وأخفى طريقاً وأقل عناية في كلام المتقدمين .

وقد كان أبو الطيب في عصر زخرت فيه بحور العلم وانتشرت كتب الفلسفة وفشت فيه آراء الحكماء والفلاسفة والزنادقة ، وأصحاب الأهواء والنحل بين طبقات العامة والخاصة .

ومن استقرى كلامه ، وجد فيه كثيراً من الآراء والمنازع الفلسفية والإلمام إلى بعض المذاهب ، وما يعتقده بعض الفرق في الأفلاك العلوية ونحو ذلك كقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

فان فيه إشارة إلى اختلاف الكلمة في فناء الجسم والروح معاً ، أو في فناء الجسم وحده ، وكلاهما قول لبعض الحكماء ، وأبو الطيب وقف بين العجز والتعب ولم يصرح بما ارتضاه من القولين على ما في كلامه من احتمال وقبول للتأويل .

وقوله من قصيدة يعزي بها عضد الدولة بعمته :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

فان فيه إشارة إلى مذهب القائلين ان الروح جوهر لطيف يصعد إلى الجو بعد مفارقة الجسم ، وإن الجسم جوهر كثيف يعود إلى عنصره الأول ، ويصلح أن يكون فيه إشارة إلى مذهب القائلين أن المادة تبقى ولا تفنى .

وقوله في هجو كافور :

ألا فتى يورد الهندي هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم
فإنه حجة يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم

فإن فيه إشارة إلى مذهب الدهرية القائلين إن العالم موجود أزلاً وأبداً لا صانع له ، والمعطلة القائلين إن العالم فارغ عن صانع أتقنه وزينه .

وقوله في مدح كافور :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

فان فيه إشارة إلى مذهب المانوية القائلين إن مبدأ هذا العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة ، وإن الخير من النور والشر من الظلمة .

وقوله من قصيدة يمدح بها طاهر العلوي :

إذا علوي لم يكن مثل طاهر فما هو إلا حجة للنواصب

فان فيه إشارة إلى فرقة يقال لهـــا الناصبية وهي تدين ببغضة علي بن أبي طالب .

وقوله :

هوّن على بصرٍ ما شق منظره فإنما يقظات العين كالحلمِ

فان فيه إشارة إلى مذهب السوفسطائية المنكرين لحقائق الأشياء ، وقد استدل فريق بهـذا البيت على أن المتنبي كان يعتقد هذا المذهب كما استدل آخرون بقوله :

تمتع من سُهادٍ أو رُقادٍ ولا تأمل كرى تحت الرجامِ
فان لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

على أنه كان يدين بالتناسخ الذي يقول أصحابه إن الروح تنتقل من جسم إلى آخر مكافأة لصاحبه على خير قدمه ، أو مجازاة على شر اجترمه . وقوله :

يقولون تأثير الكواكب في الورى فما باله تأثيره في الكواكبِ

وقوله :

وقد زعموا أن النجوم خوالدٌ ولو حاربته ناح فيها الثواكلُ

وقوله :

فتباً لدين عبيد النجوم ومن يدعي أنها تعقلُ

فان في هـذه الأبيات الثلاثة إشارة إلى مذاهب بعض الحكماء وما يعتقدونه في الكواكب العلوية من تأثير في عالم الأرض ، وقـد يستلزم الخلود لها ، وإثبات العقل لهـا وإشارة إلى أن كلمة القوم لم تتفق على ذلك ، وان لكل معتقد من يخالفه ، ولهذا عبر بكلمات : يقولون وزعموا ، ومن يدعي ، ولم يبين رأيه في ذلك ، ولكن التعبير بالكلمات السابقة يدل على أنه لا يشايع هذه الفرق في اعتقادها هذا .

ووقع في شعره ذكر رجال من الحكماء المشهورين في مثل قوله :

يموت راعي الضأن في جهله ميتـة جالينوس في طبهِ

وقوله :

من مخبر الأعراب أني بعدهم شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدياً متحضرا

وقوله :

إذا داءٌ هفا بقراط عنه فلم يعرف لصاحبه ضريبُ

وربما جرى على طريقة الحكماء في الاستدلال والتعليل كقوله :

إذا غامرت في شرفٍ مروم فلا تقنع بما دون النجومِ
فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ كطعم الموت في أمرٍ عظيم

وقوله :

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تكون جبانا

وقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

ومن تتبع كلام أبي الطيب بإمعان ، وجد فيه كثيراً من الآراء والمنازع الفلسفية ، مما يدل على أنه كان مطلعاً على شيء من هـذا العلم عارفاً بأخبار رجاله ، وما اشتهر به كل منهم من الخصائص ، عارفاً بمذاهبهم واختلافهم في فناء الروح والجسم وبقائها وبما يعتقده فريق منهم في النجوم وما شاكل ذلك .

ولكنه لا يجـد فيه كلّ نوع من أنواع الفلسفة العلمية والعملية ، بل لا يكاد يجد للفلسفة الطبيعية والرياضية والالهية إلا أثراً ضئيلاً يتراءى في الأبيات المتقدمة وأشباهها . ومثل هذا القدر يجوز أن يكون شايع فيه الحكماء بعد أن اطّلع على أقوالهم أو سمعها ، ولكنه لا يدلّ على أنه درس هذا العلم درساً وافياً واتخذ لنفسه فيه طريقاً اختصّ به كما يفعله الرّاسخون في هذا العلم .

فلم يبق من الأقسام التي برع فيهـا براعةً فائقة إلاّ طرفٌ من الفلسفة العملية وأكثره مما يتصل بالأخلاق ، وليس له فيه نظريات يثبتها

بالبراهين وآراء يدعمها بالأدلة وإنما هي جمل محكمة رائعة بليغة ينطق بمثلها الحكماء إذا تصدّوا للبحث في الأخلاق وإن كان كلامهم أدنى في باب البلاغة من كلامه .

وليست حكمته كلها مقتبسة من كلام الحكماء ولا كلها خطرات نفسية ، وإنما هي مزيج مما اقتبسه من غيره ومما هدته اليه فطرته وأرشدته إليه تجاربه .

ولعلّ أعظمَ مصدر لحكمته هذه هو حياته لأنه تعاقبت عليه أطوارٌ من الحياة مختلفةُ الأشكال من سعادة وشقاء وفاقة ورخاء وروعة وأمن وقد جرب الناس وذاقهم وأكلهم ، ودرس الحياة درساً دقيقاً وافياً واستقصى كثيراً من سجايا الناس وطباعهم ونعى عليهم كثيراً منها ، وقد كان جيد النقد دقيق الحس شديد الطموح إلى الإمارة شديد الاعتداد بنفسه عظيم الاعجاب بشعره محباً للمال حباً جماً متبذلاً في سبيله مفتوناً بالقوة منذ الحداثة كثير التغني بها فأثرت هذه العوامل المختلفة في نفسه وكان من أثرها ما تمثله أبياته في الحكمة كقوله :

أنم إلى أهل الزمان أهيله ... فأعلمهم فدمٌ وأحزمهم وغدُ
وأكرمهم كلبٌ وأبصرهم عمٍ ... وأسهدهم فهدٌ وأشجعهم قردُ

وقوله :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى ... عدوّاً له ما من صداقته بدُّ

وقوله :

وإنما نحنُ في جيلٍ سواسيةٍ ... شرٌّ على الحر من سقمٍ على بدنِ

وقوله :

إنما أنفس الأنيس سباعٌ ... يتفارسن جهرةً واغتيالا
من أطاق التماس شيءٍ غلاباً ... واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كلُّ غادٍ لحاجةٍ يتمنى ... أن يكون الغضنفر الرئبالا

وقوله :

كلُّ حلمٍ أتى بغير اقتدارٍ ... حجةٌ لاجئٌ اليها اللئامُ

وقوله :

عشْ عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنودِ
فرؤوسُ الرماح أذهب للغيـ ... ـظ وأشفى لغيلِ صدرِ الحسود
فاطلب العزّ في لظى وذرِ الذلّ ... وإن كان في جنان الخلود
يقتل العاجزُ الجبانُ وقد يعـ ... ـجز عن قطع مخنق المولود
ويُوقى الفتى المخشُّ وقد خوّ ... ض في ماء لبة الصنديد

وقد يجد الباحث في شعره غير ما تقدم كثيراً من الاشارات إلى المصطلحات الفقهية كقوله :

وأخٍ لنا بعث الطلاق أليةً ... لأعللنّ بهذه الخرطومِ
فجعلت ردي عرسه كفارةً ... في شربها وشربت غير أثيم

وقوله :

إذا ما فارقتني غسلتني ... كأنا عاكفان على حرامِ

وقوله :

شيخٌ يرى الصلوات الخمس نافلةً ... ويستحلُّ دمَ الحجاج في الحرمِ

وقوله :

وزارك بي دون الملوك تحرّجي ... إذا عنّ بحرٌ لم يجز لي التيممُ

وكذلك يجد كثيراً من أسماء الأمم والقبائل والرجال الذين اشتهروا في التاريخ بحوادث معروفة كقوله :

فكأن كل سحابةٍ وكفت بها ... تبكي بعيني عروة بن حزامِ

وقوله :

لو كان صادف رأسَ عازرَ سيفُه ... في يوم معركةٍ لأعيا عيسى

ويجد كثيراً من أسماء الأماكن من أوديةٍ وجبالٍ وهضباتٍ وأنهارٍ ومياهٍ وقرى وأمصار كما يتمثل ذلك في قصيدة قالها عند رجوعه من مصر ووصوله إلى الكوفة وغيرها .

ويجد كثيراً من أسماء الكواكب وما يتعلق بطلوعها وغروبها من الحوادث المزعومة كقوله :

وتنكرموتهم وأنا سهيلٌ طلعت بموت أولاد الزناء

وقوله :

أحبك يا بدر الزمان وشمسه وإن لامني فيك الشهى والفراقدُ

وهذا وأمثاله يدل على أن أبا الطيب كان عارفاً بعلوم الدين عالماً بأيام الناس وأخبارهم واسع الاطلاع على التاريخ وعلى تقويم البلدان عالماً بكثير من الأمكنة وما يتصل بها من حوادث ملماً بمعرفة الأفلاك وما يرتبط بها مما كان يعتقده أهلُ عصره .

ولولا خشية الاطالة لأوردنا أمثلةً متعددة تدل على علو كعبه في كل ما تقدم .

ولعل في هذا القدر ما يبين أن المتنبي وُلد ونشأ وشب ودرس وقال الشعر الجيد في الكوفة وانه استمد ثقافته اللغوية والأدبية من الكتّاب والأعراب وكتب الورّاقين وأقوال الشعراء والحكماء المعلومين والمجهولين ، وثقافته العلمية من مصادر سبق ذكرها ومن مصادر أخرى لم يسمح الزمن بكشف النقاب عنها بعد ، ومن العلوم اللسانية والشرعية ، وأن فلسفته تكاد تنحصر فيما يتصل بالأخلاق ، وأنه استمدها من حياته وفطرته وتجاربه وأمدها بما اطلع عليه من كلام الحكماء ، وان ثقافته على علاتها عاليةٌ جداً لا سيما الأدبية وقد ظهرت آثارها في أبياتٍ من شعره بلغت الغاية القصوى في طلاوة التركيب ونبالة المقصد والاعجازَ في الايجاز وقد قدرها أهل الفضل حق قدرها منها قوله :

لا يسلم الشرف الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدمُ

قال أبو الفتح بن جني : أشهد بأنه لو لم يقل إلا هذا لكان أشعر المحدثين ولكان له أن يتقدم عليهم . وقوله :

مَنْ يهن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

قال العكبري : هذا من أحسن الكلام ، ولو خرس بعده لكفاه . وقوله :

إلف هذا الهواء أوقع في الأنـــــفس أن الحمام مرّ المذاقِ
والأسى قبل فرقة الروح عجزٌ والأسى لا يكون بعد الفراق

قال أبو العلاء المعري : ولو لم يقل شاعرهما سواهما لكان له شرف منهما وجمال . وقوله الذي قال فيه أبو العباس النامي : كنت أشتهي أن أسبقه إلى معنيين قالهما ما سبق اليهما ، أحدهما :

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فصرت إذا أصابتني سهامٌ تكسرت النصال على النصال

والثاني :

في جحفلٍ ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذانِ

وكان النامي عاتب سيف الدولة لتفضيله المتنبي عليه وسأله عن سبب ذلك فأمسك عن الجواب ، فلما ألح عليه قال له : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله (أي المتنبي)

يعود من كل فتح غير مفتخرٍ وقد أغذّ اليه غير محتفلِ

ولكثرة ما في شعره من العيون والمقلدات ، لا يكاد الانسان يستطيع أن يعلم ما هو الأفضل فيه . فله في باب الغزل أبيات فذة كقوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

وقوله :

وخصر تثبت الأحداق فيه كأن عليه من حدقٍ نطاقا

وقوله :

سفرت وبرقعها الحياء بصفرةٍ سترت محاسنها ولم تك برقعا
فكأنها والدمع يقطر فوقها ذهبٌ يسمطي لؤلؤ قد رصعا
كشفت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معا

وقوله :

حسان التني ينقش الوشي مثله إذا مسن في أجسامهن النواعم
ويسمن عن در تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

وله في المدح أبيات منقطعة القرين كقوله في مدح علي بن ابراهيم التنوخي :

كأن الهام في الهيجا عيونٌ وقد طبعت سيوفك من رقادِ
وقد صغت الأسنة من هموم فما يخطرن إلاّ في فؤاد

وقوله في مدح عضد الدولة :

حمى أطراف فارس شمريٌّ يحض على التباقي بالتفاني
بضربٍ هاج أطراب المنايا سوى ضرب المثالث والمثاني
فلو طرحت قلوب العشق فيها لما خافت من الحدق الحسان

وقوله في مدح سيف الدولة :

تدوس بك الخيل الوكور على الذرى وقد كثرت حول الوكور المطاعمُ
إذا زلقت مشيتها ببطونها كما تتمشى في الصعيد الأراقمُ

وله في باب الوصف ما يقصر عن إدراكه المتطاول إليه كقوله في وصف خيمة كان تحتها سيف الدولة :

عليها رياضٌ لم تحكها سحابة وأغصان دوحٍ لم تغن حمائمه
وفوق حواشي كل ثوبٍ موجة من الدر سمط لم يثقبه ناظمه
ترى حيوان البر معتلحاً بها يحارب ضد ضده ويسالمه
إذا ضربته الريح ماج كأنه تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه

وقوله في وصف أغصان شعب بوان :

غدونا تنفض الأغصان فيها على أعرافها مثل الجمانِ
فسرت وقد حجبن الشمس عني وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفرّ من البنانِ
لها ثمرٌ تشير إليك منه بأشربةٍ وقفنَ بلا أوان

وله كثيرٌ من الوصف الرائع في وصف الأسد والصيد والخيل والحرب وغيرها .

الخلاصة :

صفوة القول أن أبا الطيب أمةٌ وحده في شعره وأدبه وحكمته وان محاسنه لا تكاد تحصى وطرائفه لا تستقصى .

وان هذا الموضوع على قلة مظانه مترامي الأطراف صعب المراس يفتقر إلى معارضة الأبيات التي قالها بالأبيات التي زعموا أنه أخذ معانيه منها وبيان ما بينها من الفروق وايراد الشواهد من كلامه لتأييد ما أسلفنا ذكره .

وهذا كله يستدعي زمناً طويلاً ، ولكن ضيق الوقت المحدود تحجر واسعاً ، واضطررنا إلى أن نبلغ بالايجاز درجة الالغاز ، وان نحشر المباحث الواسعة في عناوين ضيقة ، وندمج نوعاً من ثقافته في آخر ، وان نضرب صفحاً عن إيراد أبيات أخر من شعره هن المثل الأعلى في ثقافته الأدبية والعلمية ، حتى جاءت كلمتنا هذه كقائمة التجار يسرد فيها أعداد الثياب ولكن لا يبين فيها ما لكل واحد منها من الخصائص والمميزات ولا ما في كل منها من روعة في الوشي ودقةٍ في الصنعة وجمالٍ في الهيأة والشارة .

وعسى أن تسامح الايام بوقتٍ يتسع لتوفية هذا الموضوع حقه والسلام عليكم .

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦ .